الرَّسَائِلُ

بقلم

عادل مناع

تصميم الغلاف

هشام حسين

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٩٢٩٦ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي: ٢ – ٠٦٣ – ٤٥١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لموقع الصوفية

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٦٧٢٢٩٥٣

ص ب: ٦٨٩٨٠

الرمز البريدي: ٣١٥٣٧

E-mail:almagdy3@gmail.com

قرع لباب العقل

جلس ذلك الرجل الوقور الذي خط الشيب فَوْدَيه[1] على مائدة الإفطار، وبجواره زوجته التي انهمكت في تقديم الشاي وشيئًا من الكعك إلى زوجها الدكتور "أحمد"، وابنيهما "عماد" و"سمر".

أصليتما؟ نطق بها الوالد في حنان، فسارعا بدورهما إلى الإجابة في وقت واحد: نعم يا أبي.

ابتسم وهو يشرع في إكمال وجبة الإفطار، ووجَّه الحديث إلى عماد: أثمة محاضرات لديك اليوم؟

أجاب الشاب: نعم يا أبي، فاستطرد الوالد: فلتصطحب "سمر" معك رجاءً، فأومأ الشاب "برأسه" موافقًا.

---

(١) فوديه: الفود معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، وفودا الرأس: جانباه، انظر لسان العرب، (٣١/ ٣٤٠).

الدكتور أحمد لزوجته: أما زالت رأسك تؤلمك يا عزيزتي؟

ابتسمت زوجته سعاد قائلة: يا لك من زوج رائع، ألا يفوتك شيء يخُصنا البتة؟

ابتسم بدوره وهو يجيب: ومن لي غيركم يا سعاد، أنتم كل حياتي.

ضحكت "سمر" وهي تداعب والدها بالكلمات: طالما أننا كل حياتك يا دكتور؛ فلا تنس الليلة ميعاد النزهة الأسبوعية.

مط الوالد شفتيه في أسف وهو يقول: عذرًا يا "سمر" فلن أتمكن الليلة من اصطحابكم، فلدي موعد في غاية الأهمية.

همت الزوجة بسؤاله، إلا أنه استطرد: الليلة مولد سيدي أبي العلاء رضي الله عنه، ولا يسعني التَّغيُّب عن الاحتفال.

خيم الصمت على المستمعين الثلاثة برهة، وتبادلوا النظرات المُختلسة، وقطع هذا الصمت صوتُ "سمر" وهي تسأل والدها بجدية: لست أدري يا أبي كيف يكون دكتور في الجامعة مثلك وبهذه الثقافة الواسعة ثم تعتقد في الأولياء، وتحضر تلك الحلقات الهزلية التي يجتمع فيها الجهال!

"سمر"، كفى، قالتها الأم بنبرة عالية تحمل كثيرًا من الضيق والضجر، فتبسم الوالد في هدوء قائلًا: دعيها يا سعاد، فهكذا عودت أولادي على تحمل المناقشات وإبداء الآراء.

ثم استطرد: بنيتي، الإنسان مهما ارتقى في عالم المادة، فإنه لا غنى له عن الارتقاء الروحي، فهذا هو سبيل راحته.

تدخل "عماد" بقوله: لكن يا والدي، أليس هناك سبيل للارتقاء الروحي غير حضور هذه الحلقات والتجمعات والموالد التي لا تليق بمثلك؟!

تبسم الدكتور "أحمد" مُجيبًا: قبل أن أرافق الشيخ "جميل" وألتحق بالطريقة منذ عامين، كنت لا أجد نفسي، كنت أعيش غارقًا في المادية، ولم أجد راحتي وأُنسي إلا مع أولياء الله الصالحين.

تابع الدكتور أحمد: أعلم علم اليقين أن مسلكي هذا محل انتقاد واسع من قِبَل الكثيرين نظرًا لمكانتي العلمية، لكنني غير مستعد للتضحية بما أنا عليه من أجل بعض الآراء المهترئة.

قاطعتهم الأم: عماد، سمر، هيا إلى الجامعة حتى لا تتأخرا، فَهِم الفتى والفتاة مراد والدتهما فحمل كل منهما حاجياته وهو يُقَبِّل الوالدين، فانصرفا تاركين والديهما في لحظات قصيرة من الصمت، لكنها في ذهن الدكتور الشارد كانت تستعيد مشهدًا حدث منذ يومين في الجامعة:

دخل الدكتور أحمد قاعة المحاضرات، وما إن ألقى التحية على الطلبة وأخذ موقعه، حتى جذب انتباهه ذلك المظروف على الـ (ديسك)، ففتحه فإذا هو يطالع رسالة مطبوعة موجهة إليه:

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

الحياة تستحق منا أن نُمْعن النظر في سيرنا، وأن نتبين مواضع الخُطى، وأهيب بك أن تتدبر قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٤]، وتقبل فائق احترامي وتقديري).

قرأها الدكتور أحمد وهو يقلب بصره بينها وبين الطلبة في القاعة، وما لبث أن وضعها في جيب سترته وأقبل على بدء المحاضرة.

(أنا على يقين من أنني على الحق) نطق بها الدكتور أحمد بخفوت دون وعي، فسألته زوجته: ماذا تقول؟ أجابها متبسمًا وهو يستعد للمغادرة: لا شيء يا عزيزتي، لا شيء، فقط شردت قليلًا، لا عليك، عليَّ الذهاب حتى لا أتأخر عن موعد عملي.

❁❁❁❁❁

معارضة سرية

وقف عماد وقت الظهيرة على باب كلية دار العلوم، واستقبل بعد مُضي دقائق معدودات شقيقته «سمر» حال خروجها، وسارا معًا إلى المنزل الذي لا يبعد كثيرًا عن الجامعة، وطفقا يتجاذبان أطراف الحديث:

سمر: ها نحن قد حُرمنا من نزهتنا بسبب أخينا أبي العلاء.

انفجر عماد ضاحكًا: لا عليك يا سمر، ليس الأسبوع المقبل عنا ببعيد، مع أنني أعلم أن نزهات والدي لا تُعوض.

سمر في ضيق: لا أصدق أن الدكتور أحمد عبد الرحمن تابعٌ لإحدى الطرق الصوفية، كيف يخضع عقله الناضج لهذه السخافات؟! ألا يقرأ التاريخ ويرى دور هذه الطرق

في مساعدة المحتلين؟! ألا يعلم أنهم كانوا يخذلون الناس عن الخروج للجهاد؟ ألا يعلم..

قاطعها عماد: عزيزتي، أعتقد أن والدك يعرف ذلك وأكثر، لكنه يغض الطرف عن هذه المعلومات.

واستطرد عماد: العقل مهما حاز من المعارف والعلوم يا سمر غير معصوم عن الانحراف، انظري إلى «غاندي» مثلًا، زعيم ومناضل ومفكر وسياسي، وكان سببًا رئيسًا في تحرير بلاده، لكنه مع ذلك كله كان هندوسيًا.

أومأت برأسها متفهمة وهي تقول: صدقت، ثم أخرجت كتابًا من حقيبتها يظهر من عنوانه أنه يتناول الطرق الصوفية واعتقاداتها، فدفعته إلى عماد.

عماد ضاحكًا: ما هذا يا سمر؟ أراك تخططين للانقلاب على الدكتور أحمد عبد الرحمن.

سمر: ألا تفيق من غيبوبة المزاح هذه أبدًا؟ إنه كتاب أعارتني إياه زميلتي «سهيلة»، فتاة متدينة لها باع في العلوم الشرعية، وقد تداولنا سويًّا الحديث عن والدي والطُرُق والأولياء مرات ومرات، ونصحتني بقراءة هذا الكتاب، وأوصتني بأن أشير على والدك بقراءته.

عماد في مرح: بهذه البساطة يا سمر؟ والدي قد يتهاون معنا في أي شيء إلا مهاجمة الأولياء والأضرحة.

سمر: يا لهذه السلبية التي رانت عليك، يجب أن نفعل شيئًا، والموضوع حقًّا شائك، ولابد وأن نطالع كتب الشريعة التي تتناوله حتى نستطيع إقناعه بالعدول عن هذه الأفكار.

استطردت في حماس: لقد استفدت كثيرًا من «سهيلة»، وخرجت بمعلومات موثقة من كلام علماء الإسلام في أن والدنا على خطر عظيم في دينه ودنياه.

صمت عماد لحظات، ثم قال: أنت محقة، الموضوع ليس بالهيِّن، بالإضافة إلى ذلك قد بدأ الناس يتهامسون بشأنه، فرجل مع مكانته لابد وأن يكون مثار غمز ولمز عندما يسلم عقله لهذه الخرافات.

سمر: أنا جدُّ قلقة على والدي، ولست أدري كيف سينتهي كل ذلك، لست أدري.

الغيبوبة

في تلك الخيمة الكبيرة المنصوبة أمام مسجد أبي العلاء، كان شيخ الطريقة الذي يُدعى «جميل» يجلس على كرسيه، وتحت أقدامه مريدوه، وأمامه كان فئام من الناس يقفون محلقين يتمايلون يمنة ويسرة على أنغام المعازف، ودخان البخور يتصاعد بكثافة من الموقد.

يدخل أحدهم على الشيخ جميل يقبل يده، ويقول له: سيدي، لقد نذرت لسيدي أبي العلاء هذا المال، فاستلمه الشيخ جميل قائلًا: ادخل يا ولدي لمقام سيدك أبي العلاء والتمس منه البركات.

وما إن فرغ من كلماته حتى رأى الدكتور أحمد يقف بسيارته بجانب المسجد، ومن ورائه سيارة نقل كانت تُقلُّ عجلًا سمينًا، فأمر الدكتور سائق السيارة واثنين معه بأن يُنزلوا العجل ويربطوه إلى سارية بفناء المسجد.

دخل الدكتور أحمد إلى الخيمة وسلم على الشيخ، والذي هشَّ وبشَّ لرؤية الدكتور ورحب به وأفسح له بجانبه، وهو يقول: لا حرمك الله من ثواب الذبح لسيدك أبي العلاء، وإني لأتوسم فيك مستقبلًا مشرقًا في الطريقة يا دكتور أحمد.

ابتسم الدكتور أحمد في خجل، وهو يقول: ادع الله لوالدتي بالشفاء يا شيخ جميل، فحالتها قد ازدادت سوءًا.

الشيخ جميل: لا بأس يا ولدي، ادخل إلى مقام سيدك أبي العلاء، حاجتك مقضية إن شاء الله، ادخل يا ولدي، أنت مؤيد، ادخل.

دخل الدكتور أحمد إلى الضريح، فتابعه الشيخ جميل ببصره وقد التمعت عيناه جزلًا، ثم قال لرجل يجلس تحت قدمه: اتصل بالجزار حتى يذبح العجل على الفور، ثم تمتم بخفوت: ما أروع أن يكون رجل في مكانته منتميًا للطريقة، حتى يعلم الجميع أن معنا

من هم من أهل العلم والثقافة، فخرجت منه ضحكة مكتومة، قد أمسك بزمامها حتى لا تتبدى للحاضرين.

وقف الدكتور أحمد أمام الضريح يتمسح به وهو يقول: يا صاحب الأسرار المدد المدد، حالي يغني عن سؤالي، أمي يا أبا الأسرار يا صاحب البركات، أمي، المدد يا أبا العلاء.

قالها وقلبه يستحضر مشهد أمه العجوز وقد أنهكها المرض، فشعر بغصة في حلقه بمجرد أن رآها بعين الخيال وقد توسدت التراب، فهز رأسه وكأنه ينفض عن نفسه تلك الأفكار الموجعة.

خرج وهو يدافع للتخلص من تلك الخواطر المتزاحمة إلى حضرة شيخ الطريقة، والذي قال له: أرى علامات القبول على وجهك يا بني، كن هكذا دائمًا، (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور)[1] هذا حديث عظيم الشأن لسيدنا رسول الله ﷺ.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة)، [مجموع الفتاوي، (١/ ٦٥٣)].

ابتسم الدكتور بدهشة وهو يسأل: أهذا حديث لرسول الله؟! فأجابه: أجل يا ولدي أجل، ثم أغمض الشيخ جميل عينيه وهو يشهق، والجميع ينظرون إليه في صمت مهيب، ولم يجرؤ أحد على محادثته، فتهامسوا: الله أكبر، إسراء ومعراج، إسراء ومعراج.

الصدام

دقت ساعة الحائط لتعلن عن تمام الساعة العاشرة مساءً، حيث جلست زوجة الدكتور أحمد على الأريكة تسامر ابنيها:

عماد: أنا قلق على جدتي يا أمي، أما كان الأجدر أن تعيش معنا هنا؟

الأم: أنت تعلم يا ولدي أنها لا تنال راحتها تامة إلا في بيتها مع عمتك «كريمة» وأولادها الأيتام بعد وفاة أبيهم، كنت أتمنى أن تعيش بيننا، على الأقل حتى تريح والدك من عناء المتابعة اليومية لها في بيتها.

سمر: هذا الرجل يبهرني بحنانه الجارف، وتابعت مازحة: هلا دعوتِ لي بأن أتزوج مثله يا أمي؟

دق جرس الباب، فهرعت سمر لتفتح الباب فاستقبلت والدها بالترحاب، فدخل بدوره وسلم عليهم وجلس بينهم والابتسامة لا تفارقه.

الأم: أراك فرِحًا يا أحمد، أدام الله عليك السعادة والسرور.

الدكتور: كانت ليلة جميلة بحق، ذكر لله وروحانيات عالية، كنت بحاجة فعلًا لزيارة سيدي أبي العلاء.

تعرفين يا سعاد، لقد...

قطع حديثه بغتة وهو يحدق في ذلك الكتاب على المنضدة أمامه، فأمسك به وقرأ عنوانه وطالع الفهرس، ثم أطلَّ من عينيه الغضب وهو يقول بحدة: من الذي أحضر هذا الكتاب إلى هنا؟

سمر: أنا يا والدي.

انفجر في وجهها غضبًا متسائلًا: كيف تقرئين لهذا الوهابي الضال؟

تساءلت الزوجة: ماذا تقصد بالوهابي يا أحمد؟

أجابها وهو يحاول عبثًا كظم غيظه: بمعنى أنه تابع لمحمد بن عبد الوهاب ذلك الشيخ النجدي الذي كان يعادي أولياء الله الصالحين ويتطاول عليهم.

ثم استطرد وهو ما زال في غضبه: سمر، من الذي أعطاكِ هذا الكتاب؟

سمر: صديقة لي في الجامعة، ماذا حدث يا والدي؟ لماذا تضخم الأمور؟ إنه مجرد كتاب.

الدكتور: لا ريب أنها وهابية، وأنا أحذرك من صداقتها، أفهمتِ؟ أحذرك.

عماد بدهشة: والدي، لقد علمتنا أن نستمع للرأي الآخر؟ لماذا تخالف القاعدة هذه المرة يا أبي؟

أطرق الدكتور برأسه خجلًا ـ سرعان ما أخفاه ـ وعاد إلى حماسة الغضب وهو يقول: عندما يتعلق الأمر بخطر يتهدد أفكاركم فلتذهب القواعد إلى الجحيم.

نهضت سمر من مكانها وهي تقول بانفعال: كفاك يا أبي، كفاك، تتكلم عن الأفكار والعقائد وأنت الذي تُخضع عقلك لأفكار وعقائد وثنية، لقد صرنا نُعيَّر بك من قِبَل أصدقائنا، لقد...

أسكتتها صفعة قوية على وجهها، على إثرها خيم الصمت على المكان، وبدا المشهد وكأنه قد توقف عنده الزمن، فالوالد ما زالت يده معلقة في الهواء ينظر إليها في هلع، و«سمر» تضع كفها على خدها ـ الذي صُفعت عليه ـ في ذهول، وأما «عماد» وأمه فقد فَغَر كل منهما فاه واتسعت حدقتاه وهو يطالع المشهد.

أسرعت «سمر» إلى حجرتها وتبعها «عماد» راكضًا لتهدئتها، وأما الأم فقد جلست في صمت دام لدقيقة، لم يشقه سوى صوت الدكتور أحمد وهو يقول بوهن بدا على صوته الخافت: لماذا بقيتِ؟

تابعت صمتها، فأسند جبينه على كفه وهو يقول: رجاءً يا سعاد، اتركيني وحدي قليلًا، يمكنك أن تدخلي إلى «سمر».

نهضت «سعاد» من على الأريكة باتجاه غرفة «سمر»، وتبعها ببصره حتى دخلت الحجرة وأغلقت بابها، فالتقت عيناه بعنوان الكتاب والذي بدا وكأنه عدو يبادله نظرات التحدي، فأمسك به وقلب صفحاته فإذا به ينتفض ملقيًا بالكتاب قائلًا: هراء، هراء.

❁❁❁❁❁

المجهول

خرج الدكتور أحمد من الجامعة ليستقل سيارته، وما إن وضع بها جسده وأغلق بابها حتى أخرج من جيب سترته مظروفًا آخر، فتحه على عجل وطالع ما فيه:

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

سيدي الفاضل، هلا لاحظت أنه كلما سئل رسول الله ﷺ عن شيء، ينزل القرآن بالإجابة يبتدئ بكلمة: قل، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[البقرة: ١٨٩]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾[البقرة: ٢٢٢] ولما سئل ﷺ عن ربه: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل القرآن بالإجابة بدون كلمة قل، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

أفلا يثير ذلك في نفسك أنها دعوة من الله لأن نتوجه إليه بالدعاء دون واسطة؟ ألم تر أن الصحابة رضوان الله عليهم قد تمثلوا هذه الآية واقعًا في حياتهم قبل وبعد وفاة رسول الله؟ هل علمت أن أحدهم يومًا ما قد ذهب إلى قبر رسول الله ﷺ ودعاه من دون الله؟!

أخاطب فيك عقلك الراشد ونضج شخصيتك، وأهمس في أذنك بتلك الكلمات، وأهيب بك ألا تغتال عقلك يا دكتور، وتقبل فائق احترامي وتقديري).

طوى الورقة ثم وضعها في جيب سترته، وانطلق بسيارته قاصدًا بيت والدته، وفي الطريق جعل يتحدث إلى نفسه: ترى من هذا المجهول الذي يبعث إليَّ بهذه الرسائل، ولماذا يفعل؟ ماذا يعرف عني؟ وماذا يريد مني؟ أيكون أحد الطلبة الوهابيين في الجامعة؟ ربما، فهُم ألد أعداء الأولياء، لا ريب أنه واحد منهم.

انتشل نفسه من التفكير في هذا الحدث ووصل بسيارته إلى منزل أمه، وما إن دخل عليها حتى قبل يدها، وتفقد حالتها الصحية، وهو يرى أن الأمر يزداد سوءًا في كل مرة يراها، فربت على يدها بحنان وهو يقول: لقد وقفت أمام سيدي أبي العلاء صاحب الأسرار، وأستبشر خيرًا أن بركاته ستحل عليك يا أمي وتتعافين من مرضك.

(قل: يارب يا ولدي، قل: يارب) قالتها الأم في وهن باسم، فردد خلفها: يارب، يارب، ولم يدر الدكتور أحمد لم تذكر رسالة الشخص المجهول التي قرأها منذ ساعة، لقد سطعت صورتها في مخيلته، ووقع بصره على الـ (تابلوه) المعلق على الحائط، وتحديدًا تلك الكلمة البارزة: يارب.

❁❁❁❁❁

الصباح الحزين

التقت الأسرة على مائدة الإفطار في ذلك الصباح كالعادة، ولكن المشهد غير المعتاد كان صمت «سمر» وحزنها الدائم رغم مرور أسبوع على ما حدث بينها وبين والدها، ولم تَكُفّ نظرات الوالد الحنون عن الانطلاق نحو الفتاة في خلسة من آن لآخر، وكأنه يقاوم رغبة عارمة في أن يبدي لها أسفه.

همت «سمر» بالنهوض إلا أن الوالد ناداها: «سمر».

وقفت مكانها وهي تقول بصوت خافت دون أن تلتفت: نعم يا أبي.

اجلسي يا بنيتي، قالها في حنان جعل الجميع يدركون أنها مقدمة لاحتواء الأزمة، وهمَّ الوالد بالحديث إلا أن «سمر» ابتدرته بالكلام: أعتذر يا أبي عما بدر مني، سامحني، قالتها وقد

اغرورقت عيناها بالدموع فارتمت بين أحضانه، فأمسك بكتفيها قائلًا: ما كان لي أن أفعل ما فعلت، أنت تعرفين قدرك عندي يا سمر.

قبل جبينها، فارتسمت ابتسامة على ملامحها أجْلَت ما كان يعصف بها من حزن، فاستطرد والدها مازحًا: بالمناسبة، ما رأيك فيَّ وأنا شرس؟

تعالت الضحكات منهم جميعًا، فاصطحبهم إلى الصالة حيث جلس الجميع، وبدأ الدكتور أحمد في الحديث: أود أن تعلمي يا سمر أن العالم مليء بالأسرار التي لا ندركها، من كان يتخيل أن الأسلاك يسري فيها تيار يصعق فيلًا؟ مع أننا لا نرى التيار الكهربائي؟

وفي معتقداتنا الدينية نؤمن بالروح ولا نراها، نؤمن بالجن ولانراهم، نؤمن بالملائكة ولا نراهم، فلماذا نرفض فكرة أن لهؤلاء الأولياء أسرارًا ومقامات لا نعرفها نحن؟!

«سمر»: لكن يا والدي قد طالعت عددًا غير بسيط من كتب علماء الإسلام المعروفين، وهم ينسفون هذه الأفكار.

الوالد: بنيتي أولئك هم الوهابيون، الذين يعادون أولياء الله، ألا تعرفين جزاء من يعادي أولياء الله؟! يقول سبحانه في الحديث القدسي: (**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**)[1]، هل تدركين ما معنى أن يؤذن الله إنسانًا بالحرب؟

الوالدة: أحمد، أود أن أسألك سؤلًا، قال متبسمًا: على الرحب والسعة، سلي ما بدا لك يا سعاد.

وما كاد يتم كلماته حتى دق جرس الهاتف، فقام عماد ليرى من الذي يتصل في هذا الوقت المبكر، وما إن أمسك بسماعة الهاتف وأجاب المتكلم حتى ارتخت يداه وسقطت السماعة من يده، وجثا على ركبتيه، فهرع الجميع إليه يهتفون في وقت واحد: ما الأمر يا عماد؟

انتحب وهو يقول بصوت متحشرج: لقد ماتت جدتي.

❁❁❁❁❁

(١) رواه البخاري، (٧٣١٦).

همس الحق

أسبوع مضى على وفاة والدة الدكتور أحمد، والذي تأثر كثيرًا بفقدانها، وقضى تلك الفترة على وتيرة واحدة من الأحزان العاصفة، يستوحش بغياب والدته فيستجلب من سِجِل ذكرياته ما يطالع خلاله محياها، وعبثًا يطفئ جذوة الأحزان بداخله.

دخل إلى قاعة المحاضرات، فما إن رأى المظروف على الـ (الديسك) حتى استشاط غضبًا هذه المرة، وتوجه إلى الطلاب قائلًا بعنف:

من منكم يضع المظروف على (الديسك)؟ لم ينْبسَّ أحدهم ببنت شفة، فتابع: أهذه الدرجة لا يملك الشجاعة للاعتراف؟ ثم رمَقَهم بنظرة حادة متفحصة، بينما كان الطلاب ينظر بعضهم إلى بعض وكأنهم يتساءلون عن الأمر، فما كان من الدكتور إلا أن وضع المظروف في جيبه، وشرع في إلقاء محاضرته.

انتهت المحاضرة وخرج إلى كافيتيريا الجامعة ليتناول فنجانًا من القهوة، وهو يتردد في فتح المظروف، فلقد تجاذبته الرغبة في الابتعاد عن أي شبهة تثار لديه عن الأولياء، وفي نفس الوقت تجاذبته رغبة أشد في أن يتعرف على محتوى الرسالة، ولم يطل ذلك التردد حيث اتخذ قراره بفتح المظروف، وبدأ في قراءة الرسالة:

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله:

فلتعلم أني أُحِب أولياء الله، ومَنْ مِن أهل الإيمان يكره أولياء الله الصالحين؟ فهم أحباؤه وأصفياؤه، ومحبتهم في الله طاعة وقربة، لا أستطيع إنكار هذا).

إلى هذا الحد اتسعت عينا الدكتور أحمد دهشة وارتسمت على ملامحه علامات الارتياح، سرعان ما تبددت عندما استأنف القراءة:

(ولكن يا دكتور الخلاف بيننا في الإجابة على ذلك السؤال: من هم أولياء الله؟ ومن الذي يجيب على ذلك السؤال؟ أنا أم أنت؟ ألا تتفق معي أن الذي خلقهم هو أعلم بصفاتهم؟! افتح قلبك لقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

إذًا فهم أهل الإيمان والتقوى، ومن الذي يصنف المتقين من غيرهم؟ يخبرك القرآن: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، فلم يشترط القرآن يا سيدي في تحديد الولي أن يكون صاحب طريقة أو ضريح، أو حتى يمشي على الماء أو يطير في الهواء، فلو اشترط القرآن ذلك لم يكن أحد من صحابة النبي ﷺ ـ والذين هم خير القرون ـ من أولياء الله الصالحين، فإنهم لم يكونوا ذوي أضرحة تقام لهم الموالد والنذور، ولم يكونوا يطيرون في الهواء أو يمشون على الماء، فافتح عقلك وقلبك لصوت الحق يا دكتور أحمد، ومعذرة على الإطالة فما حملني على ذلك سوى إرادة الخير بك، وتقبل فائق احترامي وتقديري).

طوى الرسالة ووضعها في جيب سترته، ثم أخرجها مرة أخرى وهو يعيد قراءتها، في محاولة منه لدحض تلك الشبهات التي أثارتها كلمات ذلك المجهول، وود لو علم من يكون صاحبها هذا؟ هل هو من أقربائه؟ من أصدقائه؟ من طلابه؟

هل يكون عماد أو سمر؟ لكنه يعرف أسلوبهما في الكتابة؟ ثم إنها ليسا بهذه الدرجة من الثقافة الإسلامية، إضافة إلى ذلك: كيف سيصلان إلى مكان عمله بهذه السهولة ويدخلان إلى القاعة ويضعان الرسالة حيث يجلس؟ فمن إذًا؟ من؟

والتمعت في ذهنه فكرة، فأخرج هاتفه واتصل على زوجته، وسألها: متى خرج عماد وسمر إلى الجامعة؟

أجابت الزوجة: عماد لم يذهب فليس لديه محاضرات اليوم، وسمر خرجت منذ ساعة واحدة تقريبًا، أنهى الاتصال وقد تبين أن الأمر بعيد عن ابنيه.

❁❁❁❁❁

الأوهام

دقَّ جرس الهاتف في منزل الدكتور أحمد، والذي رفع السماعة، فإذا به يقول: مرحبًا، مرحبًا بالشيخ الصالح، كيف حالك يا شيخ (جميل)؟

استمع إليه بُرهة ثم قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة: بشرك الله بالخير يا مولانا، بشرك الله بالخير، نِعْم البشرى عندما تأتي من أولياء الله الصالحين أمثالك.

سكت برهة يستمع إليه فأردف: نعم يا مولانا سأفعل، سأكون بحضرتك الليلة.

دار ذلك الحديث بينما زوجته وابناه يتابعان في صمت ذلك الحوار وهم يتخيلون ما لا يسمعونه، فاستقبلته زوجته بابتسامة عذبة بعدما وضع سماعة الهاتف وأقبل نحوهم: خيرًا يا أحمد، بشَّرنا كما بشرك الشيخ جميل.

هز رأسه في سرور قائلًا: لقد صلى الشيخ الليلة هناك، وبشرني بأنه رأى رسول الله ﷺ يأمره أن يبلغني السلام.

الزوجة: وكيف يرى الرسول ﷺ؟

أجابها: ذاك ما يسمى عند العارفين بالكشف، يكون عن الرسول ﷺ إما منامًا أو يقظة.

سمر: هناك؟! أين يا أبي؟ فأجابها: في بيت الله الحرام بمكة.

الزوجة: هل يؤدي العمرة هناك هذه الأيام؟

الدكتور أحمد: لا، لقد صلى وعاد في ساعة واحدة، إنه من أولياء الله أهل الخطوة، تطوى لهم المسافات.

هنا انفجر عماد ضاحكًا، وسرعان ما كتم ضحكاته خجلًا من والده، والذي هز رأسه ساخرًا وهو يقول: شيء طبيعي أن لا تصدق وأنت لم تستطع إنقاذ نفسك من عالم المادية، لقد

غرقت فيها مع الغارقين المتشدقين بقدسية العقل، أما أنا فقد اجتزت التحدي، ومع كل ما وصلت إليه من درجات علمية إلا أن عقلي قد عُصم من الزلل مثلك.

ثم أردف بحماس: مثلكم يُحرم من تَكَشُّف الحقائق أمامه، لا يدرك إلا ما تراه عينه، وتسمعه أذنه، زاد من نبرة صوته المرتفعة وهو يقول: لقد التحمتْ روحي بعالم الغيب، ثم شرد ببصره قائلًا: ما أروع أن نكون بحلقة الذكر ويمر علينا رسول الله ﷺ، أو يأتي الخضر عليه السلام يشاركنا عبادة الله، أو يأتيني العارفون والأولياء في منامي، يُثبِّتون أقدامي على الحق، ثم سالت من عينيه دمعة خشوع لم ينتبه لها.

كان الجميع يتطلعون إليه وكأنهم يشاهدون عملًا دراميًّا على شاشات التلفاز، ولم يستفيقوا من دهشتهم إلا عندما غادر الدكتور أحمد المكان إلى حجرته.

سمر: أنا أشعر بالخوف على والدي، أشعر أنه في طريقه إلى الجنون.

الأم في صراخ: سمر، كيف تجرئين؟

عماد: إنها بالتأكيد لا تقصد يا أمي، ولكننا بالفعل نخاف على والدي، قناعاته بهذه الأوهام تتطور.

سكت ثم استطرد: أمي، هل تعتقدين في الأولياء وهذه القدرات الخارقة في الحياة وبعد الموت؟

أجابت: مطلقًا يا ولدي، ولكن ماذا بيدي أن أفعل لوالدك؟ إنه متشبع بهذه الأفكار، أدعو الله أن يبصره بالصواب.

صمت أمام الضريح

وفي ذلك المساء فتح الدكتور أحمد خزانته وأخرج منها مبلغًا ماليًّا كبيرًا، وألقى التحية على أسرته، ثم نزل لكي يستقل سيارته، فإذ به يَرى مظروفًا مثبتًا بشريط لاصق على الزجاج الأمامي، فوقف أمامه وهو يحدث نفسه: أتكون إحدى رسائل ذلك الشخص المجهول؟

ثم ضحك ساخرًا: هل نقل معركة الرسائل خارج أسوار الجامعة؟ انتزعها وهو يقول: لا بأس، سأقرأها، لست بالذي يهرب من المواجهة.

دخل سيارته وبدأ يقرأ الرسالة:

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله:

أيهما أفضل وأقرب وأعظم مكانة عند الله، الرسول أم الولي؟ كأني أسمعك الآن وأنت تجيب: الرسول قطعًا، فأُحيْلك إلى سؤال آخر: أيهما أحب وأفضل عند الله وأتقى، وأكثر اتباعًا للحق، أنت أم صحابة النبي ﷺ؟ كأني أسمعك مرة أخرى تجيب: صحابة الرسول لا شك، فأحيلك إلى سؤال ثالث: هل سمعت ذات مرة بأن الصحابة مع ما مر بهم من أزمات بعد وفاة نبيهم قد ذهبوا إلى قبره وسألوه الفرج والمدد أو الشفاء أو التوسعة في الرزق، أو التمسوا البركة في تربته؟

أتحداك لو ظفرت بما يثبت أنهم فعلوا، ولذا أحيلك إلى سؤال أخير: تفعل أنت مع أوليائك ما لم يفعله الصحابة مع نبيهم، فعلتها وأنت أدنى منزلة من الصحابة، مع من هو أدنى منزلة من الرسول ﷺ، فأين عقلك يا دكتور؟ تقبل فائق احترامي وتقديري).

حدق الدكتور أحمد في الرسالة وقد احمر وجهه، وشعر بصداع خفيف في رأسه، وقد شعر لأول مرة بخوف شديد على نفسه، وبدأت التساؤلات تحيط به من كل زاوية، وكان يدافعها

وينفض رأسه في عنف، وهو يقول لنفسه: لا تدع بعض شبهات ألقى بها وهابيٌ تزلزل كيانك، اذهب إلى الشيخ جميل، فحتمًا سوف يريحك بعلمه من عناء التفكير.

انطلق بسيارته وهو يغالب الخطرات، فما إن وصل إلى شيخه حتى استقبله الثاني بالترحاب الخاص كالعادة، وأجلسه بجانبه في حجرته بالمسجد، فأخرج له الدكتور مبلغًا من المال، وقال له: هذا المال لصندوق سيدي أبي العلاء، على روح والدتي رحمة الله عليها.

قالها وقد أطرق برأسه تأثرًا بينما لم يلحظ نظرة الجزل في عيني الشيخ جميل وهو يتناول المال قائلًا: رحمة الله عليها، أبشر يا ولدي، أبشر، فإن ولدها تبدو عليه أمارات الاقتراب من الوصول.

تساءل الدكتور: ماذا تقصد يا شيخ؟

أجاب وهو مغمض العينين يهز رأسه يمينًا وشمالًا: أتظن بعد الأوراد والعبادات أن يدوم الحال على ذلك يابني وتستوي بالعامة؟ إنها مراقي ومراتب، سيفتح الله عليك، ويأتيك اليقين من الله، ولكن لا تتعجل يا بني لا تتعجل، ادخل إلى حضرة سيدك أبي العلاء والتمس منه البركات.

نهض الدكتور أحمد وسرعان ما تذكر شيئًا جعله يعاود الجلوس، فقال: أود أن أسأل سؤالًا يا شيخ.

الشيخ جميل: تفضل يا بني، سل ما بدا لك.

الدكتور: لماذا نطلب المدد من الولي، والله يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]؟

فزع الشيخ جميل، ولكنه سرعان ما سيطر على انفعالاته وهو يجيب: يا ولدي، إذا أردت الدخول على ملك من ملوك الدنيا، أكنت تدخل عليه مباشرة أم بواسطة مساعده أو سكرتيره أو حاجبه؟

الدكتور أحمد وهو يفكر: الثانية.

الشيخ جميل: حسنًا، إذا كنت لا تجرؤ على الدخول على ملك من ملوك الدنيا بدون وسيط، فكيف تجرؤ على الدخول على ملك الملوك من غيره، قالها وهو يغمض عينيه ويرفع صوته: حي قيوم صمد.

ثم استطرد: كيف يدخل الإنسان بذنوبه وروثه إلى ساحة الحضْرة الإلهية دون أن يتوسط له أولياء الله الأطهار الأبرار؟

هز الدكتور أحمد رأسه وهو يحاول إقناع نفسه بما سمع، وبذل جهدًا لتكييف عقله مع تلك المعلومة الجديدة، ولكنها لم تكن مشبعة حقًّا.

فما كان من الشيخ إلا أن سأله بغتة: ما شأنك يا دكتور أحمد، هل تشك في أولياء الله، أم أنك تجالس بعض الوهابيين أعداء الأولياء الصالحين؟

لا تدع الأباطيل تثنيك عن طريق الحق يا بني؟ ادخل على سيدك أبي العلاء والتمس منه البركة حتى يذهب ما في صدرك وتجد برد اليقين يا بني، فإني أخاف عليك أن تصير بالشكوك إلى ما صار إليه صاحبنا «رمزي».

انتفض الدكتور كالذي كان يبحث عن شيء ضائع فوجده، فتساءل في نفسه: لقد غاب ذلك عن ذهني، لماذا لا يكون ذلك الصديق الذي انحرف من جوار الأولياء إلى صحبة الوهابيين هو الذي يبعث بالرسائل، شيء منطقي جدًّا.

انتزع نفسه من تفكيره، ودخل إلى الضريح ووقف أمامه، ولأول مرة لم يدر ما يقول، كل ما فعله هو الصمت، وجال بخاطره كل ما حدث منذ تلقى أول الرسائل، وشعر بأنه يحمل همًّا فوق رأسه يضاهي الجبال، وتمنى أن لم يقرأ تلك الرسائل ويظل على حاله الأول من النعيم الروحي.

خرج من شروده في حيز الصمت، وتوجه إلى مكان الشيخ جميل واقترب منه دون أن يشعر الثاني، فنظر الدكتور إلى حيث ينظر الشيخ جميل، فإذا به يراه شاردًا في مطالعة جسد امرأة تقف عند المقام وتتمسح به.

يا مولانا تأمرني بشيء؟ لم ينتبه الشيخ جميل لكلمات الدكتور والذي كررها، فإذا بشيخه ينتبه ويجتهد في إخفاء أمارات الخجل التي بدت على وجهه، وهو يقول: عذرًا يا بني، لم أكن هنا، كنت أجول في ملكوت الله، حي قيوم صمد.

هز الدكتور أحمد رأسه وودع شيخه، وهو يقنع عقله الذي بدأ يتمرد بأن كلام الشيخ حق، وأن ما رأت عيناه ليس كما توهم.

❁❁❁❁❁

هزة وجدان

في ساحة الجامعة كانت «سمر» تسير مع زميلتها «سهيلة»، يتجاذبان أطراف الحديث، وقد تعودتا في الآونة الأخيرة أن يكون الدكتور أحمد هو محور الأحاديث غالبًا.

سهيلة: لدي يقين يا سمر أن والدك سوف يقلع عن طريق الأوهام هذا ويعود إلى حظيرة السنة، أرى فيه خيرًا كثيرًا من خلال كلامك عنه، وحرصًا على طاعة الله، فمثل هذا لو أتاه الحق بَيِّنًا فلن يرده إن شاء الله.

سمر: هو بالفعل يا سهيلة إنسان طيب القلب، محب للخير، بالمناسبة يا سهيلة، لقد ذكر لي والدي من جملة ما ذكر، حديثًا قدسيًّا استدل به على خطورة معاداة أولياء الله، هنا قاطعتها سهيلة: (**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**)[1]، فأومأت سمر برأسها أن: نعم.

(١) رواه البخاري، (٦٥٠٢).

سهيلة: دائمًا يستدل به غلاة الصوفية على معتقداتهم، الحديث حق وصحيح، لكن أولياء الله يا سمر هم المتقون، قد تكونين أنت من أولياء الله، أو فلان أو فلانة، طالما حقق العبد التقوى، باجتناب ما نهى الله عنه والتقرب إليه بالطاعات، أي: جعل بينه وبين الله وقاية تقيه عذاب الله، هؤلاء هم الأولياء، فلا يشترط أن تكون لهم كرامات.

سمر: حسنًا، أستأذنك يا سهيلة فأخي عماد أراه ينتظرني خارج البوابة، ألقاك على خير إن شاء الله.

وفي نفس الوقت كان الدكتور أحمد يتجه بسيارته صوب إحدى محلات لعب الأطفال، وما إن دخله حتى قام رجل وقور من على مكتبه وهو يستقبل الدكتور أحمد بحفاوة بالغة ويعانقه، وأجلسه ودعا له بمشروب بارد، وقال: أحمد الله أنك بخير يا دكتور أحمد، قد مضت فترة طويلة لم أرك فيها، ويعلم الله كم أسعدني دخولك علي هذه الساعة.

الدكتور أحمد: أشكرك يا أستاذ رمزي، بالفعل لم نلتق منذ تركت الطريقة سوى مرة واحدة.

ابتسم رمزي وهو يقول: الحمد لله أنك بخير، تفضل تناول شرابك، فسكت رمزي برهة ثم قال: بالمناسبة كان الشيخ جميل يقول: إن الله تعالى ذكر الطريقة في القرآن: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، نظر إليه الدكتور أحمد بصمت يوحي بأنه يتوقع واحدة من المفاجآت التي تنهال عليه من آن لآخر.

فاستطرد رمزي: لقد سألت نفسي يومًا: كيف يكون المقصود بالطريقة المذكورة في القرآن ذلك الذي نتبعه ونسير عليه مع الشيخ جميل، مع أن التصوف قد ظهر في القرن الثالث الهجري، ولم تكن بعد تلك الطرق.

لم يتفوه الدكتور بكلمة واحدة رغم أنه في قرارة نفسه يبحث عما يرد به، إلا أن رمزي لم يدعه لتفكيره إذ تابع الحديث: صدقني يا دكتور أحمد، لم أشعر بأنني أحترم عقلي إلا بعد أن اتبعت السنة على حقيقتها، واكتشفت بأني قد ضيعت عمري هباءً، وليتك...

باغته الدكتور أحمد بقوله: أستاذ رمزي، لماذا لم تسلك معي طريقًا مباشرًا في نصحك بدلًا من طريقة الرسائل هذه؟

نظر رمزي إليه بدهشة وهو يسأله: أي رسائل؟!

أجاب: أعتقد أنك تدرك ما أتحدث عنه.

رمزي: صدقني، يا دكتور أنا بالفعل لا أدري عم تتحدث.

الدكتور أحمد «بشيء من الحدة»: هل تحاول إقناعي بأنك لست من يرسل إليَّ بتلك الرسائل محاولًا تشكيكي في الأولياء؟

رمزي: أقسم لك بالله يا دكتور أنني لم أفعل، وليتني كنت أفعل، ولكن حقًّا لست أنا.

بدت أمارات الحيرة على وجه الدكتور، وهو يمط شفتيه ويهز رأسه قائلًا: لا بأس، سامحني على إزعاجك.

قالها وهو ينهض، فدعاه رمزي لقضاء وقت أطول معه، إلا أن الدكتور قد تعلل بانشغالاته، لكنه قد وعده بتكرار الزيارة، فودعه وانصرف وقد اهتز وجدانه بصورة غير مسبوقة.

❁❁❁❁❁

مفاجأة بعد منتصف الليل

دخل الدكتور أحمد كالعادة على الشيخ جميل ورحب الأخير به، وأفاض عليه بكلمات الإطراء والثناء، ثم نشر عمامته فوضعها على عين الدكتور، وأخذ بيده تجاه الضريح وهو يقول: أبشر يا دكتور أبشر، سوف يكون لك شأن عظيم.

وما زال يقترب به ناحية المقام، حتى قال له: هيا، اقترب أكثر من سيدك أبي العلاء صاحب الأسرار، والتمس منه البركات.

تحسس الدكتور أحمد موضع الضريح، ولم يكد يضع يده عليه حتى شبت النار في كفيه، وظل يصرخ، ويصرخ...

أحمد، أحمد، قالتها زوجته وهي توقظه مما بدا وكأنه كابوس مرَّ بزوجها في نومه، فقام فزعًا، وهو ينظر إلى يده، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويحمد الله أنه كان حلمًا.

الزوجة: خيرًا يا أحمد، ماذا رأيت في منامك أفزعك هكذا؟

أجاب: لا شيء يا سعاد، خيرًا إن شاء الله، ثم نظر في ساعته، فوجدها الثانية بعد منتصف الليل فقام متجهًا نحو الحمام، فإذا بنغمة الهاتف تعلن عن وصول رسالة جوال، فأمسك بهاتفه الجوال وهو يضغط على زر إظهار الرسائل، فإذا به أمام مفاجأة لم تكن متوقعة بالمرة:

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله:

لقد خاطب الله نبيه ﷺ قائلًا: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ [الجن: ٢١]؛ فإذا كان رسول الله سيد ولد آدم لا يستطيع لنا نفعًا ولا ضرًّا، هل يستطيعه الأولياء؟!

يا دكتور إن كنت تعتقد أن الأولياء والأقطاب يَعلمون الغيب، أليس ﷺ أولى منهم بعلم الغيب، ومع ذلك خاطبه ربه: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولو كان يعلم الغيب لما نزل على رغبة أصحابه يوم أحد، ولاختار أن يعتصم بالمدينة حتى يتجنب مقتل صفوة أصحابه، ولو كان يعلم الغيب لما بعث بأصحابه إلى من غَدَر بهم يوم بئر معونة حيث قتل أربعون من أصحابه.

فإذا كان على عظم قدره عند الله لا يعلم الغيب، فكيف يعرفه من هم أدنى منه منزلة، أين عقلك يا دكتور، تقبل فائق احترامي وتقديري).

قرأ هذه الرسالة التي وصلته عبر مراحل، وقد حسب أنه ظفر بصاحب الرسائل، وعلى الفور اتصل على الرقم المُرسِل، ولكنه قد وجده مغلقًا، فزفر في ضيق، وهو يقول: من أين له برقم هاتفي؟ وما الذي يجعله مشغولًا بي لهذه الدرجة؟!

كانت زوجته تتابع كل ما حدث وهي تنظر إليه بدهشة ولا تدري ماذا يحدث، ولكنها خرجت من صمتها سائلة إياه عما يدور، فسرد عليها قصة الرسائل من بدايتها، فقالت: ربما يكون عماد وسمر من وراء ذلك، فأجاب: لقد حدثت نفسي بذلك ولكنه قد تأكد لدي بشواهد كثيرة أنهما بعيدان عن الأمر.

قالت: مهما كانت هويته يا أحمد، فلم تحار في هذا؟ لا تقرأ الرسائل وانتهى الأمر.

الدكتور أحمد: أنا لم أعتد الهروب يا سعاد، ثم أنني أثق في عقلي وأحترمه، فكيف أهينه بتجنب قراءة الرسائل؟ معنى ذلك أنني أخاف على عقلي من التأثر بأي شيء.

الزوجة: حسنًا، لماذا لا تنظر إلى الجانب الحسن في الموضوع؟

هز رأسه متسائلًا: ماذا تقصدين؟

فتابعت حديثها: شخص مشغول بك، يتعب نفسه بأن يوصل إليك هذه الرسائل، ويظهر من خلال كلماته أنه حريص عليك دون وجود أي مصلحة تعود عليه بالنفع، فلماذا تجعله خصمًا لك؟

فاجأته بحديثها المقنع، والذي وجد له صدى في داخله، وهز رأسه في ارتياح، ثم قال: لديك حق فيما قلتِ، ولكن لماذا لا يواجهني طالما يريد بي الخير؟

مطت شفتيها ثم قالت: من المؤكد أن له أسبابه، ولكن كل ما أريد قوله أنه لا ينبغي أن تكون بهذا القدر من الانزعاج لهذه الرسائل.

شعر بمزيد من الارتياح، ولأول مرة يشعر بالتقارب مع صاحب الرسالة، وزال إلى حد بعيد ما بصدره من ضجر تجاهه، بعد أن أصغى سمعه لصوت العقل.

❁❁❁❁❁

مُنحنى جديد

فتح ذلك الشخص هاتفه الجوال بعد أن كان مغلقًا، وهم بكتابة رسالة، غير أنه قد فوجئ بنغمة الهاتف تنبئ باستلامه رسالة:

(إلى صاحب الرسائل، السلام عليكم ورحمة الله:

إذا كنت بالفعل تريد الخير لي، فلماذا لا تقابلني ونتحدث سويًّا، أسمع منك وتسمع مني، أو على الأقل فلتدع هاتفك الجوال مفتوحًا حتى أتمكن من التواصل معك من خلال الهاتف، ومرفق بالرسالة بريدي الإكتروني، وصفحتي على الفيس بوك، أرجو أن نتواصل).

ابتسم صاحب الرسائل، وأغلق هاتفه المحمول، ريثما يفكر في الرد عليه بطريقة تتناسب مع الموقف الجديد، وهو يقول في نفسه: ترى هل بدأ الاقتناع يدب في نفسه، أم أنه مجرد فضول لمعرفة هوية ذلك الشخص المجهول الذي يلاحقه بالرسائل؟

وفي نفس الوقت كان الأستاذ رمزي يتحدث إلى إمام أحد المساجد بشأن الدكتور أحمد...

رمزي: راودتني فكرة بشأن الشيخ جميل حتى أكشف باطله أمام الدكتور أحمد.

سأله الشيخ: وما هي؟

رمزي: لدي معلومات مؤكدة أن الشيخ جميل تأتيه معونة من بعض الطرق الصوفية بدولة من دول الجوار كنفقات للطريقة ومتطلبات أنشطتها، وأنه يقوم باختلاس معظمها لنفقته الخاصة.

الشيخ: المشكلة يا أستاذ رمزي لابد وأن تعالج من جذورها، فهب أنك قد كشفت له حقيقة المدعو جميل، وهو ما زال بعد على اعتقاده في الأولياء والأضرحة، قد ينتقل إلى شيخ آخر من مشايخ الطرق، خاصة أن شخصية واعية كشخصية الدكتور أحمد كما فهمت من كلامك لن يكون تعلقها بالأشخاص، ولكن بالمنهج ذاته.

أمسك رمزي شفته السفلى بأنامل أصبعيه في حيرة، ثم قال: وماذا ترى يا شيخ؟

الشيخ: الالتفاف حوله واستثارة فضوله لمعرفة الحق، وستجدني إن شاء الله عونًا لك في ذلك قدر استطاعتي، هز رمزي رأسه في ارتياح متحمس، وهو يدعو الله للدكتور أحمد بأن يقيمه على الجادة.

صداقة الحروف

(إلى صاحب الرسائل: السلام عليكم ورحمة الله.

لماذا تحرمون الذبح عند أضرحة الأولياء، علمًا بأن الذبح يكون لله، والثواب يكون للولي، هذه هي النية، أريد جوابًا شافيًا حول هذه المسألة).

كانت هذه أول استفسارات الدكتور أحمد التي أرسل بها إلى صاحب الرسائل بعدما بعث الأخير إليه بطلب الصداقة، فصارا صديقين على صفحات الـ (فيس بوك).

ولم يكد صباح اليوم التالي يبزغ حتى وصلت إلى حقيبة الدكتور رسالة من صاحب الرسائل:

(عزيزي الدكتور أحمد: السلام عليكم ورحمة الله.

أشكر لك تواصلك، وأثمن حرصك على الخير، وفقك الله إلى ما يحب ويرضى.

بخصوص استفسارك حول الذبح عند الضريح، فاعلم أولًا بأن الذبح عبادة لا تنبغي إلا لله، والرسول ﷺ يقول: (**لعن الله من ذبح لغير الله**)[1].

أما عن قولك بأن الذبح لله والثواب للولي، فأقول: إن كنت تذبح لله حقًّا وتوهب الثواب إلى الولي، فلماذا تذبح عند الضريح؟ هل الثواب لا يصل إلا إذا ذبحت عند الضريح؟

ومن ناحية أخرى لا أراك تختلف معي في أن كثيرًا من الجهال يذبحون للولي بالفعل، وكونك تذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فهذا مما نهى الله ورسوله عنه، وفي الحديث: (نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي ﷺ: **هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها**

---

(١) رواه مسلم، (٩٣٢٥).

عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: **أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم)**[1].

ثم فلتعلم يا دكتور أن الشرع قد منع كل ما يفضي إلى الزلل صيانة للعباد، لذا منع من التشبه بغير المسلمين سدًّا لذريعة الشرك، ونفس الكلام يقال في مسألة الذبح عن الضريح، وتقبل فائق احترامي وتقديري).

عشرة أيام مضت على الدكتور أحمد وهو يتلقى الرسائل على صفحته في الـ (فيس بوك) من ذلك الشخص المجهول، بل صارا يتحدثان سويًّا من خلال الـ (شات) حتى تكونت بينهما صداقة من نوع جديد، صداقة الحروف.

لم يعرف الدكتور أحمد من الذي يتحدث إليه: اسمه، شكله، مهنته، لم يفصح له ذلك الشخص بأي من بياناته، ما جعل الدكتور يكف عن إبداء أي استفسار عن

(١) رواه أبو داود، (٥١٣٣)، وصححه الألباني.

شخصية ذلك المجهول، ويكتفي بالتواصل معه عبر تلك الحروف التي تتراص على الشاشة أمامه.

كانت بينهما مناقشات، ومعارضات، وردود، وإحالة إلى مراجع ومصادر فيما يتحدثان فيه.

الدكتور أحمد: ولكن أنا أدعو الله عن طريق الولي، لا أدعو الولي ذاته، بمعنى أنني أتخذه واسطة لأنه أقرب إلى الله وأطهر، واستعار هنا كلمات الشيخ جميل وتشبيهاته:

تمامًا كما تدخل أنت على ملك من ملوك الدنيا، هل تدخل عليه مباشرة؟ أم أنك تتوجه إلى حاجبه أو سكرتيره أو معاونه؟

صاحب الرسائل: أولًا يا دكتور، لا يليق بالله في جلاله وكماله وعدله ورحمته أن نشبهه بالملك الذي كثيرًا ما يظلم ويبطش ويتقوى بملكه وسلطانه.

استطرد: ثانيًا، هذه هي عقيدة المشركين بتمامها، هل تعتقد أن المشركين كانوا ينسبون الخلق والإيجاد والرزق للأصنام؟ القرآن الكريم يجيبنا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان: ٢٥]، فكانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق لا الأصنام.

كان الدكتور أحمد يقرأ باهتمام بالغ، وقد عاهد نفسه على التجرد في تلقي كلمات الشخص المجهول، فواصل قراءة كلماته دون مقاطعة:

ولكن يا دكتور كان شركهم وكفرهم يتمثل في أنهم يعبدون هذه الأصنام لكي تقربهم إلى الله سبحانه.

وهمَّ الغريب بإضافة جملة جديدة، إلا أنه كف عن الكتابة عندما رأى المؤشر لدى الدكتور أحمد ينبئ بأنه يكتب.

وبالفعل تدخل الدكتور أحمد: مهلًا كيف أتثبت من تلك المعلومة؟

صاحب الرسائل: القرآن يا دكتور، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

كف الاثنان عن الكتابة، وساد صمت الكلمات بينهما فترة، لم يقطعها سوى عبارة من قِبَل صاحب الرسالة تفيد بأنه ينوي الاستئذان، فودع الدكتور أحمد تاركًا إياه غارقًا في لجة الاشتياق إلى استكمال الحديث.

فكر بعد انتهاء حديثهما فيما قرأه وأعاد قراءته بمتمعن، وشرد قليلًا ثم أغمض عينيه، إلا أن صوت رنين هاتفه الجوال قد باغته، فتناوله فإذا هو بالشيخ جميل:

أهلًا بك يا شيخ جميل.

بخير الحمد لله.

لا شيء، فقط مشغول ببعض المستجدات.

بالتأكيد سوف آتيك إن شاء الله، أنا بالفعل بحاجة إلى الجلوس معك.

اتفقنا يا شيخ جميل، موعدنا غدًا إن شاء الله، في رعاية الله.

أغلق جواله واستكمل صمته وشروده.

❁❁❁❁❁

الصراع الهادئ

خرجت سمر من حجرتها على والدتها وأخيها عماد وهما يتحدثان عن مستقبله، وسألتها: أمي، أين كتابي الذي استعرته من سهيلة؟

الأم: أي كتاب يا سمر؟

عماد مشيرًا إلى خده على السبيل المداعبة: الكتاب يا أمي، الكتاب، وأشار مرة أخرى بقوة إلى خده كأنه يصفعه.

ضحكت الأم، بينما قذفته سمر بوسادة صغيرة للأريكة في وجهه، وهي تقول: نعم إنه ذلك الكتاب.

الأم: حسنًا فهمت، إن والدك يعكف هذه الأيام على قراءته كل ليلة قبل نومه.

سمر: حقًّا؟ ثم ضحكت وتابعت في مرح: لا بأس، ربما يمسح ذلك أثر الصفعة على خدي.

وفي الوقت ذاته كان الدكتور أحمد يجلس قبيل المغرب مع الأستاذ رمزي، ولا يدري لماذا صار حريصًا على اللقاء به، لم يعد لتلك الفجوة بينهما وجود، مما حدا برمزي إلى أن يصطحبه لدرس حول تفسير القرآن بعد صلاة المغرب.

في البداية تردد الدكتور أحمد في قبول دعوته، لكنه قبل بها بعد أن عاهد نفسه أن يتعامل مع الأمر بحيادية، لا يجنب سمعه صدى جميع الأصوات، وفي النهاية سوف يحدد وجهته بنفسه.

إنه الآن يعيش فترة صراع، ولكنه صراع مفعم بالهدوء، يختلف عن ذي قبل، لم يعد ذلك الرجل الذي يدافع الخطرات ويجاهد لفض اشتباكها، ولا بالذي يغلق باب عقله، هو الآن يبحث عن الحق، هكذا عاهد نفسه.

دخل المسجد مع صاحبه لصلاة المغرب، وعقبها جلسا سويًّا يستمعان لدرس التفسير، وكان يدور حول سورة الكهف، وتحديدًا كان الحديث تتمة للقاء سابق حول قصة موسى مع الخضر.

ألقى بعض الحاضرين بعض الأسئلة على الشيخ، منها ما كان من الأستاذ رمزي والذي أرسل بسؤال متعمدًا: البعض يقول أن الخضر ما زال حيًّا، فما صحة هذا الكلام؟

أجاب الشيخ: هذا القول لا يصح، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فما من بشر خلده الله في الحياة.

ويدل عليه كذلك قوله ﷺ: **(لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم)**[1]، فيفهم من الحديث أنه لو كان الخضر حيًّا من عهد موسى، لكان في تعداد الأموات في غضون المائة عام التي مرت بعد ذلك اليوم الذي نطق فيه النبي ﷺ بهذا الكلام.

(١) رواه مسلم (٩٤٦٦).

تدخل الدكتور أحمد بلهفة: هل هذا حديث صحيح يا شيخ؟

ابتسم الشيخ وهو يقول: الحديث صحيح رواه مسلم، ثم تابع حديثه:

ومما يدل على ذلك أيضًا، أنه لو كان حيًّا في زمن الرسول ﷺ لكان لزامًا عليه أن يمثل بين يدي الحبيب ويبايعه ويناصره ويجاهد معه.

وأدلة أخرى لا يتسع المقام لذكرها، ومن أراد أن...

قاطعه الدكتور بسؤاله: لكني قد سمعت حديثًا معناه أن الخضر وإلياس يلتقيان كل عام ويفترقان على بعض الكلمات.

ابتسم الشيخ قائلًا: هذا حديث مكذوب على رسول الله، هكذا حكم عليه علماء الحديث الأجلاء.

تذكر الدكتور في هذه اللحظات ما كان يتقيأ به المدعو جميل من الحديث عن الخضر وأنه يكلمه ويستقي منه ويأخذ عنه، وحضوره حلقات الذكر التي كان يقيمها.

ودع صديقه بعد انتهاء اللقاء، ثم توجه بسيارته إلى مسجد أبي العلاء، لمقابلة الشيخ جميل كما وعده.

الصرخة

جلس الدكتور أحمد مع الشيخ جميل في مسجده، وكان الأخير يتحدث بحماس عن كرامات الأولياء أحياءً وأمواتًا، ويستعير من ذاكرته ما سمعه عن قصص أولئك الذين عادوا الأولياء ثم حلت بهم القوارع والمصائب، وكأنه قد اشتم رائحة الشك تفوح من الدكتور أحمد.

كل ذلك والدكتور أحمد يستمع إليه في فتور، ثم باغته بسؤال:

يا شيخ جميل: قلت لي قبل أننا ندعو الولي لأنه أقرب إلى الله ومثَّلت لذلك بالدخول على ملك من ملوك الدنيا؟

الشيخ جميل: نعم بحق ويقين يا دكتور أحمد.

الدكتور: ولكن المشركين كانوا يقولون بذلك، يعبدون الأصنام حتى تقربهم إلى ربهم، والله سبحانه وتعالى قال في سورة الزمر: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

امتقع وجه الشيخ جميل، وهو يقول: وهل تُشبّه الأصنام بأولياء الله الصالحين يا دكتور؟

الدكتور: المؤدى واحد، هو ذاته نفس المعتقد، هؤلاء يدعون الأصنام لتقربهم إلى الله، ونحن ندعو الولي ليقربنا إلى الله.

احمر وجه الشيخ جميل غضبًا وهو يقول صارخًا: ما الذي حدث لك يا دكتور أحمد؟ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] هل تكذب القرآن؟

الدكتور أحمد: معاذ الله، ولكن من هم أولياء الله؟ أليس قد عرفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]؟

هنا قام الشيخ جميل من مكانه كالملدوغ وهو يصرخ: هذا كلام الوهابين بعينه، اخرج من حضرة الأولياء، اخرج فلقد انحرفت عن الصراط المستقيم، ولسوف تندم أشد الندم، غضب الأولياء لا قِبَل لأحد به.

قام الدكتور أحمد بدوره وهو يهز رأسه في أسى وهو يقول: لأول مرة أحتقر نفسي وعقلي، لأنني قد سلمته هكذا للأوهام، ولكن أنت لم تخدعني، فلقد خدعت أنا نفسي.

قالها وهو يسير إلى باب المسجد، ثم التفت إلى الضريح فوقف برهة يتطلع إليه، ثم سار نحوه بخطوات بطيئة متثاقلة، فوقف أمامه بينما كان الشيخ جميل يرمقه بصمت وجزل يمني نفسه بعودة الدكتور أحمد إلى براثن تلك الأفكار.

وقف الدكتور أحمد يطالع الضريح وقد بدا وكأنه يراه لأول مرة، لقد شعر بأنه يراه بعيون جديدة، ثم خاطبه: هل تسمعني؟ لا أحتاج إليك، ثم صرخ بأعلى صوته: لا أحتاج إليك، أنا أكفر بك، هل تسمعني؟

ظل يصرخ بها ويردد تلك الكلمات، حتى قام إليه أتباع الشيخ جميل وأوسعوه ضربًا ثم ألقوا به خارج المسجد، فصار يمسح الدم عن وجهه وهو يضحك ويبكي في نفس الوقت، ويقول في ضحك هستيري: كيف حالك يا دكتور الجامعة؟ كيف حالك يا صاحب العقل الواعي الناضج؟ كيف حالك يا رجل العلم؟

دخل سيارته ثم وضع رأسه على المقود دقيقة حتى سكن، ثم انطلق بالسيارة، وأخرج هاتفه وكتب رسالة إلى صاحب الرسائل: أين أنت؟ أحتاج للحديث معك.

الوجه الآخر للحياة

(عزيزي الدكتور أحمد، السلام عليكم ورحمة الله.

معذرة لعدم تواصلي معك في الأيام السابقة لأعذار أنت في غنى عن معرفتها، وأما بخصوص سؤالك حول رفع التكليف عن الولي بمجرد رؤية أمارات كما يزعم المدعو جميل، فإن هذا من الاستخفاف والسفه، لأن التكاليف الشرعية لا تسقط عن المكلف حتى يموت طالما كان قادرًا على أدائها.

وأما الاستدلال على ذلك بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] فالمراد باليقين: الموت.

والنبي ﷺ قد صلى حتى آخر فرض مر عليه في حياته، وعلى حد زعم الشيخ جميل: إذا كان المقصود بهذا اليقين ما يرتفع به التكليف، فهل وجده الأولياء ووجده المدعو جميل، ولم يجده رسول الله ﷺ طوال حياته؟!

وإني أحمد الله أن بصرك بالحق، وأنا أرحب بكل استفساراتك، وتقبل فائق احترامي وتقديري).

وجد الدكتور أحمد هذه الرسالة على صفحته بالـ(فيس بوك) بعد انقطاع التواصل بينه وبين صاحب الرسائل على مدى أسبوع، كان الدكتور خلاله في شوق عارم للحديث مع الغريب.

دق جرس الباب، ففتح عماد فإذا به يستقبل ضيفين لوالده، وأدخلهما إلى حجرة الضيافة، وقدم لهما عصيرًا طازجًا، وسرعان ما طرق الدكتور عليهما الباب، فإذا هو بالأستاذ رمزي وإمام المسجد، فكان العناق والترحاب وتجاذب أطراف الحديث.

الأستاذ رمزي: لقد كنت على يقين يا دكتور بأنك سوف تعود إلى السنة، فلقد عهدتك دائمًا حريصًا على رضا الله تعالى.

الإمام: وهذا أيضًا ما توسمته فيك يا دكتور من كلام الأستاذ رمزي عنك أولًا، ثم من ملامحك حين رأيتك في درس التفسير.

الدكتور أحمد: صدقني يا شيخ، لقد كنت أبحث طوال حياتي عما يخلصني من الخواء الروحي، لكنني قد أخطأت الطريق إليه.

الإمام: لا تنظر إلى الوراء يا رجل، واحمد الله أنك حي ترزق لكي تتدارك ما فاتك، ولعل الله أن ينفع بك الإسلام والمسلمين، فقال الجميع بصوت واحد: آمين.

❁❁❁❁❁

الموعد

جلس الدكتور أحمد على جهاز الحاسوب يتبادل العبارات مع صاحب الرسائل كما تعود كل ليلة:

الدكتور أحمد: حقًّا لا أعرف كيف أكافأك على صنيعك معي؟ فلم يُسْد إليَّ أحدٌ معروفًا أنفع لي مما فعلته معي؟

صاحب الرسائل: يا دكتور أنا وأنت نشكر الله تعالى وحده، أن تفضل علينا بهذه المنة، أن وفقني لأداء دوري معك، وأن أقامك على ما يحب ويرضى.

الدكتور أحمد: ألا ترى أنه لم يعد هناك داع لأن تخفي شخصيتك عني؟

كتب صاحب الرسائل حرف الهاء مكررًا للدلالة على ضحكه، ثم كتب: حتمًا سيكون إن شاء الله يا دكتور، ولكن يجب أن تكون ثمة إغراءات تدفعني لذلك، وليمة مثلًا كالتي كنت تعدها للشيخ جميل، ثم ضحك.

ضحك الدكتور أحمد بدوره، وقال: هل أنت جاد في طلبك؟

صاحب الرسائل: أنا بالفعل للقياك بالأشواق يا دكتور.

الدكتور: وأنا الشعور ذاته يتملكني يا...، حتى اسمك لا تريد أن تخبرني به؟ أهي أسرار عسكرية؟

ضحك صاحب الرسائل، وهو يقول: حسنًا فلنتفق على موعد، لنقل: بعد غد إن شاء الله تعالى، هل يناسبك؟

الدكتور أحمد: على الرحب والسعة، الساعة الرابعة بعد صلاة العصر، هل يناسبك؟

صاحب الرسائل: على بركة الله، سأطرق بابك في الرابعة تمامًا إن شاء الله، أستأذنك للانصراف، السلام عليكم.

الدكتور أحمد: في رعاية الله، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أغلق الدكتور جهاز الحاسوب، وهو يستدير بابتسامة عذبة فإذا بزوجته تلقاء وجهه، فلقد كانت تتابعه في صمت كاتمة أنفاسها وابتسامتها وهي تتابع تلك الغبطة والفرحة والسعادة التي كان تغمر الدكتور وهو يتحدث مع صاحب الرسائل، فقال لها: فلتعدي بعد غد أفضل وليمة لأعز ضيف.

وفي الليلة التالية كان الدكتور يجلس مع أسرته في ساعة صفاء، والضحكات تنطلق منهم جميعًا عندما كان الدكتور يتندر بطرائف ما كان يحدث بحضرة المدعو جميل.

ثم أقبل عليهم بقوله: لست أصدق نفسي أنني كنت بهذا الاستخفاف بعقلي، كنت أحاول أن أجعل لكل زلة للشيخ جميل مخرجًا.

ثم استطرد: لقد قرأت كتاب زميلتك سهيلة جيدًا واستفدت منه كثيرًا يا سمر.

سمر: إذًا حققت مرادي وقرأتَ الكتاب، وكانت الصفعة هدية مجانية.

قالتها بمرح فانطلقت الضحكات من الجميع، قطعها الدكتور بحديثه: إنني بحق في شوق إلى لقاء ذلك الرجل الذي كان له الفضل بعد الله تعالى في إنقاذي من براثن الخرافات.

ابتسمت سمر قائلة: وما أدراك أنه رجل، ربما يكون أنثى.

ضحك الجميع، ثم قام الدكتور أحمد ووقف في شرفته، وهو يتطلع إلى السماء، ويتذكر كلمات والدته: (قل: يارب يا ولدي، قل: يارب)، فخرجت العبارة من قلب الدكتور: يارب، يارب، ثم جذبه تفكيره إلى الساعة الرابعة من الغد، إلى الموعد.

❁❁❁❁❁

اللقاء

جلست الأسرة حول مائدة الإفطار، وحان موعد انصراف عماد وسمر، فقال الدكتور: عماد، متى ستعود اليوم إن شاء الله من الجامعة؟

عماد: في حوالي الساعة الخامسة، ثم التفت الوالد إلى سمر والتي قالت: بعده بنصف ساعة، فعقب الدكتور: حسنًا لا تتأخرا، فأريدك يا عماد أن تتعرف على الضيف، وأنت يا سمر أريدك بجانب والدتك ربما كانت بحاجة إليك.

أومأت برأسها، ثم انصرفت وعماد إلى الجامعة تاركيْن والديهما يتحدثان سويًّا عن صاحب الرسائل.

الساعة الرابعة إلا خمس دقائق، والدكتور أحمد يجوب الصالة ذهابًا وإيابًا في توتر، وهو يقول لنفسه: ما بك يا رجل، هون على نفسك، لا تجعل الفضول يعصف بك هكذا، وما زال يحدث نفسه حتى دقت الساعة الرابعة ولم يأت الضيف.

مرت خمس دقائق أخرى وهو ينظر إلى ساعته في قلق، وزوجته تتابع انفعالاته وهي تبتسم قائلة: هون على نفسك يا عزيزي، لم يفت الكثير من الوقت.

الدكتور أحمد: مرت سبع دقائق عن الموعد، أخشى ألا يأتي، لقد حسبت أني ظفرت بالرجل، وأنني سأتعرف على أغرب شخصية في حياتي، ولكن...

دق جرس الباب، فارتسمت علامات الفرحة على محياه وهو يعدل من هندامه، ويهرع إلى الباب، فأمسك بمقبضه في انفعال وهو يفتح للطارق:

السلام عليكم يا دكتور أحمد.

الدكتور أحمد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لقد حضرت مبكرًا عن موعدك.

أجابه: على العكس يا دكتور، لقد تأخرت عن الموعد عشر دقائق، موعدي معك في الرابعة كما اتفقنا.

اتسعت حدقتا الدكتور أحمد، وهو يقول في هلع: أنت؟ أنت؟ أنت يا عماد؟

وقف الاثنان في صمت وبدا المشهد وكأنه صورة فوتوغرافية قد التقطت للاثنين في هذا الوضع.

لم يشق ذلك الصمت سوى صوت الدكتور أحمد الذي اختلط بالبكاء: أنت؟ أنت يا عماد صاحب الرسائل؟ لا أصدق، ولكن..

لم يدر ما يقول سوى: ولدي، حبيبي، ثم عانقه والدموع تنهمر من عينيهما، طال العناق وكأن الدكتور أحمد قد حالت بينه وبين لقاء ولده أعوام وأعوام.

كان ذلك الموقف برمته على باب المنزل والذي لم يكن أغلق بعد، وقد أتت الزوجة لتشارك زوجها الدهشة والفرحة والصمت حيث لا تجد الكلمات لنفسها موضعًا في المشهد.

الدكتور أحمد: ولكن كيف؟ من أين لك بهذه الثقافة الإسلامية، لقد حسبت أنني أمام عالم من علماء الإسلام؟

عماد: كان معي شريكي.

فغر الدكتور فاه من الدهشة، ولم يمهله عماد، إذ قال: تفضل بالدخول.

السلام عليكم ورحمة الله، نطق بها شاب باسم الثغر تبدو عليه أمارات الأخلاق الدمثة، فقال الدكتور وهو يشعر أنه في خضم تصوير فيلم سينمائي: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

عماد: أقدم لك: مهندس/ خالد مهران، صديق عزيز، ورفيقي في تلك الرحلة الطويلة.

على بساط البيان

جلس الدكتور يتناول الغداء برفقة عماد وصديقه، وأقبل عليهما بشغف يغار منه الطعام الذي يتناولونه، ينشد معرفة الحكاية منذ بدايتها.

عماد: لقد كانت البداية عندما هالني انغماسك مع الطرق والأضرحة والأولياء، وجدت أنه شيء غير لائق بك بالمرة، فأردت أن أستوثق من صحة ما أنت عليه أو عدمه، فتعرفت على المهندس خالد، وهو بالمناسبة داعية إسلامي معروف برغم صغر سنه.

ابتسم الدكتور بوجه خالد، ثم تحول إلى عماد بقوله: ثم ماذا؟

عماد: تعلمت منه الكثير، واستبان لي الحق فساءني ما وصلتَ إليه أنت.

الدكتور: فلماذا لم تصارحني وتتحدث إلي؟

عماد: علمت بأن ذلك غير مجدٍ، وأنه لابد من التفكير في حيلة مناسبة تجعلك تستمع وتصغي برغبتك، وبالطبع كان لمعرفتي بطبيعتك وشخصيتك دورًا حيويًّا.

ابتسم الوالد قائلًا: يا لك من داهية، وأنا الذي كنت أتهمك بالخمول الذهني.

ضحك عماد ثم أردف: وقد كان لخالد الدور الأساسي فيما حدث، كان هو مرجعيتي العلمية في كل ما أوصلته إليك.

خالد: أعتقد أنك تتحمل وحدك المسئولية كاملة عما حدث، فأنت العقل المدبر.

ضحك الجميع، ثم قال الدكتور وهو يدافع فضوله لمعرفة المزيد: فلنكمل غداءنا، ثم نستأنف الحديث أثناء تناول الشاي.

جلس ثلاثتهم في حجرة الضيافة يرتشفون الشاي، فقال الدكتور في حيرة: ولكن ثمة أسئلة أريد إجابة لها.

عماد: ما هي يا والدي؟

الدكتور: على سبيل المثال: كيف وصلت الرسائل إلى قاعة المحاضرات؟

خالد: ابن عمي من أحد طلبتك، كان هو الوسيلة.

اتسعت عينا الدكتور في مرح مردفًا: وكيف كنت تكلمني يا عماد على الـ (فيس بوك) وأنت بحجرتك، ألم تقل أن هذه المعلومات الشرعية الدقيقة كان خالد هو مصدرها؟

عماد مبتسمًا: كنت أحدثك من حجرتي على الـ فيس بوك، بينما كنت أتواصل أنا وخالد عبر الـ (ماسنجر)، فكنت أنقل من كلام خالد إليك، وأحيانًا كنا نجهز رسالة سويًّا ثم أرسلها لك عبر الجوال.

الدكتور أحمد وقد اتسعت عيناه بشدة من فرط الدهشة: أشعر وكأنني أقرأ رواية بوليسية.

التفت إلى خالد سائلًا إياه: وما حملك على كل هذا يا خالد؟ لمجرد صداقتك لعماد؟ هل الأمر يستحق منك هذا العناء والتخطيط والجهد؟

خالد: يستحق وأكثر يا دكتور، أولًا هذه وظيفتي الأولى والأهم في حياتي: الدلالة على الخير، إنها بالنسبة إلي رسالة، بمعنى كلمة رسالة.

هز الدكتور أحمد رأسه بإعجاب وهو يسأله: كم عمرك يا خالد؟

خالد: ست وعشرون، فعقب الدكتور أحمد: ما شاء الله، كل هذا العلم والعطاء في هذه السن، أنت بالتأكيد فخر لوالديك.

خالد: والدي رحمه الله غرس في حب العلم وتعليمه للناس، وما زالت والدتي على قيد الحياة، أسأل الله لها طول العمر وحسن العمل.

قال الجميع: آمين، فقال الدكتور: يا خالد مهما خرج من شفتي من عبارات الشكر والاعتراف بالجميل فلن تفي بشيء مما أدين به لك، ولكن بحوزتي عبارة يشهد الله على صدقها: إنني أتشرف بأن تجعلني من اليوم فصاعدًا والدًا لك.

ابتسم خالد قائلًا: أُصْدِقك القول يا دكتور لقد حدث ذلك بالفعل، إن كنت قد عرفتني الآن فقد عرفتك على مدى شهور.

التفت الدكتور أحمد إلى عماد وأمسك بأذنه مداعبًا: أما أنت، فسأصفي معك حساب الفضول الذي قتلني طيلة هذه الشهور لمعرفة هويتك.

ضحك ثلاثتهم فأخذهما الدكتور أحمد بين أحضانه في مشهد يفيض بالحب والود والحنان.

❁❁❁❁❁

حفيف الذكريات

❁ وبعد سبع سنين:

خالد: هيا يا سمر، فلتسرعي سنتأخر عن حفل توقيع الكتاب الجديد لوالدك، جهزي أحمد الصغير وهالة سريعًا.

سمر: أمهلني فقط خمس دقائق، حالًا سنكون جاهزين إن شاء الله.

وفي شقة أخرى في نفس المبنى:

(لقد تجهزت وكذلك سعاد يا عماد) كانت تلك هي أميرة زوجة عماد، يستعدان للذهاب إلى حفل توقيع الكتاب.

توجهت الأسرتان إلى معرض الكتاب، حيث حفل توقيع الكتاب الرابع للدكتور أحمد عبد الرحمن، والذي كان قد استقل سيارته برفقة زوجته إلى ذات المكان.

وبدأ حفل توقيع الكتاب الجديد، وانهالت التهاني على الدكتور أحمد، وتبادل العناق مع أفراد أسرته، وأمسك كل منهم بنسخته كهدية من الدكتور، وبدت الذكريات ترفرف عليهم وهم يطالعون عنوان ذلك الكتاب: الرَّسَائِلُ .

❁❁❁❁❁

الفهرس

قرع لباب العقل ٣
معارضة سرية ٨
الغيبوبة ١٢
الصدام ١٦
المجهول ٢١
الصباح الحزين ٢٤
همس الحق ٢٧
الأوهام ٣١
صمت أمام الضريح ٣٥
هزة وجدان ٤٢
مفاجأة بعد منتصف الليل ٤٧
منحنى جديد ٥٣
صداقة الحروف ٥٦

الصراع الهادئ ٦٣
الصرخة ٦٨
الوجه الآخر للحياة ٧٢
الموعد ٧٥
اللقاء ٧٩
على بساط البيان ٨٤
حفيف الذكريات ٨٩
الفهرس ٩١